آليات الإقناع في التخاطب البياني

د: غانم حنجار (ج.ابن خلدون-تيارت-)

مقدمة:

شاع الاعتقاد بالتمايز العقلي بين الأمم والشعوب، ومرد ذلك الاختلاف أمر مكين بقوة الفطرة « **فأقم وجهك للدّين حنيفا فطرة الله التي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون**» [1]. وتأسيسا على ظاهرة التمايز الفكري الذي ينبغي إدراجه في سياق التكامل الإنساني لا التفاضل الجنسي- كما أرادت بعض المفاهيم المتعصّبة ترسيخه- فإنّ مقولة «**الشرق بياني والغرب برهاني**» لا يمكن اعتبارها إلاّ ضربا من التصنيف المغالط، الذي يجعل الحضارات مرهونة لهذا التصنيف أو ذاك. فإذا كانت الحضارة الإغريقية قد قامت على العقل، والعقل صفة في الإنسان مقدّم على سائر الصفات والقيم. فلا يعني بحال أن تكون حضارة اليونان ملهمة لبقية الحضارات الإنسانية كما يزعم بعض الدارسين؟ أو يكون الرجل الغربي بفعل هذا الشعور هو وحده من يستأثر بالعقلانية، والفكر الراشد، والأمر سيان بالنسبة لأهل البيان. فالأمة العربية ذات بيان عال، يشهد لبراعتها البلاغية كلّ من احتكّ بها في مضمار التخاطب والكلام ، ومع هذا لا ينبغي عدّ هاته الخصية سببا تفوقياّ، تتأسّس عليه حضارة البيان في مقابل حضارة البرهان.

والذي ينبغي ادّعاؤه هو أنّ الأمم متكافئة بفضل مواهبها الإدراكية، وهي في ذلك على أقدار متفاوتة من العقل والبيان، لما بينهما من تعلق، وتكامل، وتأثير. وإنْ جرى في معتاد الناس أنّ التخاطب الإقناعي لا محالة يحصل بقوة البرهان، وحجّة العقل.

فإلى أي مدى يمكن تصديق هذا التوهّم؟ ألا يمكن فرض الإقناع بسلطان البيان متى توافرت الشروط، وتهيّأت لذلك السياقات؟ كيف يقنع البياني مخاطَبيه؟ وما هي آلياته الوظيفية في ذلك الاختيار؟

هذا ما تسعى الدراسة إلى بسطه من خلال التعرّض لأهمّ العينات النصية الدالة، ومن مختلف الأجناس الأدبية.

1 - البيان: الدلالة والسياق:

تفحّص المعجميون مادة «بين» فوجدوها جامعة لمعاني الوضوح، والإظهار، والفصاحة، يقول الإمام الجوهري(393-هـ):«البيان، الفصاحة واللَّسَن.»[2]، وتعني عند ابن منظور(711هـ): «... والبيان إظهار المقصود بأبلغ لفظ. وهو من حسن الفهم وذكاء القلب مع اللسن. وأصله الكشف والظهور.»[3]

أما في مدوّنات التفسير؛ فللعلماء إزاء لفظ البيان أقوال لم تحَد بعيدا عمّا أشار إليه اللغويون المذكورون. فهم يفسرون قوله تعالى:«**خلق الإنسان علّمه البيان**» بحسب كل مدرسة، وما عرفت به من التوجّه في فهم الظواهر القرآنية. فالإمام ابن كثير(...774هـ) يعتمد رأي الحسن البصري(110هـ) «قال الحسن: يعني النطق، وقال غيره: يعني الخير والشر. وقول الحسن ها هنا أحسن وأقوى، لأن السياق في تعليمه تعالى

القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الحلق، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها على اختلاف مخارجها وأنواعها».[4]

أمّا الإمام جارالله الزمخشري (467 - 538هـ) فيرى البيان هو «ما تميز به عن سائر الحيوان من البيان، وهو المنطق الفصيح المعرب.» [5]

في حين يذكر الإمام الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين«..وحينئذ فالمراد بالبيان علم ما كان ،وما يكون ، وما هو كائن. وقيل: آدم عليه السلام، والمراد بالبيان أسماء كل شيء، ما وجد، وما لم يوجد بجميع اللغات، فكان مئة لغة أفضلها العربية.» [6]

فجملة هذه التخريجات تتقارب في المدلول، وتلتقي عند معنى النطق والفصاحة التي لا تحيد عن مدلول البلاغة إلا بقدر من التلاؤم مع الحقل الجمالي، كون مصطلح البيان في الدرس البلاغي شديد التعلق بالصفة الجمالية، التي اشتغل على أثرها ثلة من النقاد، والبلاغيين بدءا بالجاحظ (255هـ) وانتهاء بالإمام السكاكي (626).

فيكفي أن يكون الجاحظ ألّف كتابا صريحا فيه، وحشد في مضامينه نصوصا وشواهد واستدلّ بالشروح، وأفاض بالأخبار لغرض إقناع الخاصة قبل العامة بشرعية السلطة البيانية من باب كونها مزية عربية، وخصيصه قومية نطق بوجودها القرآن. ولأجل هذه القيم عرفه الجاحظ بقوله: « البيان اسم جامع لكل شيء، كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أيّ جنس كان ذلك الدليل، لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام.

فبأيّ شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع.» [7]

فالجاحظ يستجمع لصفة تحقق البيان في الخطاب أطراف التخاطب، ومقاصده، وطرائق تحقيقه وسياقاته، فيكون قد وسّع من مدلوله وربطه بالوظيفة التواصلية، التبليغية التي تقتضيها الوظيفة الإمتاعية في المقام المتأدِّب. ومن هنا يقنعنا أن البيان خصوصية لسانية يتعذر إتيانها لدهماء الناس وعمومهم.

أما السكاكي فقد فسّر البيان مستفيدا من الآراء السابقة له في باب النقد البلاغي. فنظر إلى البيان نظرة معيارية.« فأدخل الدلالات في تقسيم موضوعاته التي انحصرت في التشبيه والمجاز بأنواعه والكتابة»[8] قاصدا المعنى التصويري بفعل التخيل، وهو العنصر الذي تقتضيه أدبية التصوير في السياق الجمالي.

والخلاصة من كلّ هذا. إنّ مصطلح البيان واسع الدلالة، متشعِّب المراد، لا ينضبط إلا بحدّ سياقاته المعرفية التي تتعاضد في كلّها مشكِّلة التوصيف المدلولي بسمته اللغوي والاصطلاحي.

2 - آليات الإقناع في مقامات التخاطب البياني:

إنّ العلاقة التي تجمع بين ثنائية المقام والمقال لا يمكن اختزالها في المتن القولي، وتحديد المناسبة التي سيق فيها ذلك القول. ولكن مدار الأمر يقتضي الشعور بأطراف الخطاب من: متكلم بمواصفاته العقلية والنفسية، ومتلق مقصود بذلك الخطاب، لغاية يحملها المخاطِب سلفا في وعيه. ولأجل هذا تكون مقولة: « لكلّ مقام مقال « قد أحاطت ضمنيا بالدورة الخطابية إحاطة تامّة، وفرضت على المتكلِّم حينها الشعور

بمسؤولية التبليغ والإفهام، الذي لا يعني أكثر من كونه مخاطِبا بليغا، تترتّب عليه واجبات التأديّة في أعلى مستوياتها. يقول ابن المقفع «إذا أعطيت كلّ مقام حقّه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك **المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام...»** [9]

فإرضاء من يعرف حقوق الكلام بأية أداة يكون ؟ وإلى أيّ سبيل ينتسب؟

فالناس مفطورون على الاختلاف، ومحتوم عليهم الانتهاء إلى حد من التلاقي والتفاهم. لكن ما السبيل إلى ذلك ؟

«فطرق التصديق الموجودة للناس ثلاثا: البرهانية ، الجدلية، الخطابية... وكأنّ الناس كلّهم ليس في طباعهم أن يقبلوا البراهين. ولا الأقاويل الجدلية فضلا عن البرهانية من العسر.»[10]

وهذا إشكال متحقّق ، وسيظل قائما بين المتخاطبين على مستوى التواصل ولا سيّما إذا ما كانت البرهانية، أو الجدلية خيارا تخاطبيا. لأنّ طبيعة اللغة البرهانية بتجريدها، وجفاف مقولاتها، والتواء طرق تعبيرها عن الأفكار تلحق النفور لا محالة، وتلقى البرودة في حسّ المتلقي. وهذا مؤشّر كاف على عجز التلقي والاستيعاب.

فالحكم هذا لا يعني بحال أنّ التواصل قد ينصرم حبله بين الأطراف، لأنّ الإقناع البرهاني متوقِّف على قوّة الاستدلال الحجاجي، وعلى تخيّر النخبة المقصودة بالسماع، فالمعاني اللطيفة «لا يبصرها إلاّ ذوو الأذهان الصافية، والعقول النافذة، والطباع السليمة، والنفوس المستعدّة، لأن تعيّ الحكمة، وتعرف فصل الخطاب.» [11] ممّا يهيئ للقول:

إنّ الإرضاء بالبيان، والإقناع بفن الخطاب يكون خليقا بأن يستغرق الكثرة الكاثرة من طبقة الخواص، ممّن هم في مقام التلقّي، إن حشِر له من أدوات التبليغ ما يوفي الغرض حقّه.

وحتّى نعدّد بعض أهم الآليات الإقناعية بالبيان فلا مناص من التمثيل لها، وبأوضح النماذج الصالحة، وبقدر من التنويع النصّي من خلال الجمع بين الحديث النبوي، والمقطوعة الشعرية والمساءلة الهادفة، والتوقيع الرسمي، إيمانا منّا بصلاحية هذه العيّنات لا اشتمالها على شرائط التخاطب التواصلي في بعده الجمالي.

1 - النبرة الصوتية:

ويراد بها التأدية الشفوية للخطاب، حيث يعدّ الصوت قيمة مطلقة، ذات محمولات دلالية تجاه المتلقّي، وفي سياقات معينة. لأنّ العرب وضعت شرطا في الخطابة، يتعلّق بصفة الصوت. **فكان إذا سُئل أحدهم عمّا هو الجمال؟ قال: طول القامة، وضخم الهامة، ورحب الأشداق، وبعد الصوت.** وهو ما يفسر اقتناع الجاحظ بأنّ الصّوت البشري هو كل شيء بل هو الإنسان نفسه[12]. فبه نتسامع، وبه نتفاهم وعليه مدار التبليغ. فهذا نبينا- صلى الله عليه وسلم - لم يمنعه في حجّة الوداع الاستعانة بصوت عمّه العباس، وسياق الحدث أمر جامع للناس، من كلّ جنس وجهة. قاموا مصغين له، منصتين لمقرّراته -صلى الله عليه وسلم- على أنها مقرّرات حاسمة وأبدية ملزمة. وسياق الخطاب هنا يستلزم حسن إفهام الخطيب، مع حسن فهم السامع.

ولكن من ذا الذي يجرؤ على الشكّ في كفاءته – صلى الله عليه وسلم - لحظة التبليغ فيطلبَ منه بلاغة الخطاب، وهو الذي استوي له عود الكلام، وأوتي جوامعه مختَصَرا ؟ ولكن استعانته بصوت العباس كان

قد حقّق غرضه الإبلاغي بانتفاع المسلمين في هذا اليوم المشهود، كما انتفعوا ثانية بصوته يوم حنين، ساعة انكفأ المسلمون عن رسول الله فَرَقا و بقيّ وحده- صلى الله عليه وسلم - تتربّص به دوائر الشماتة والرّيب في حصول النصر. وكان إلى جنبه «**العباس آخذا» بلجام بغلته دلدل وهو عليها وكان العباس جسيما، شديد الصوت فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - :« يا عباس اصرخ: يا معشر الأنصار. يا أصحاب السَّمُرة. ففعل فأجابوه»** [13] **وزاد مسلم:«فقلت – أي العباس- بأعلى صوتي: يا أصحاب السّمرة فقال: فوالله لكأنّ عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها...»** [14]

والقيم التعبيرية للصوت شديدة الظهور في كلّ المقامات الحاسمة، من تاريخ الصراع الحضاري للأمّة. فالمفاوض والخطيب، والقائد على حدّ سواء مطلوب منهم في سياق العسرة والشدة التّقَوِّي بالمظهر، والسّمت المعبِّر، لأنّ التأدية الصوتية تكون وقتئذ أُولى رسائل التبليغ نحو عقول، ونفوس الخصوم. فقد روى الجاحظ أنّ عبد الملك بن صالح قد ترأّس الوفد العربي في إحدى الجولات التفاوضية مع الروم، وحدث أنْ عطس أحد الوافدين المسلمين في حلقة الاجتماع عطسة باهتة، ضعيفة فوبّخه عبد الملك بالقول:» ويلك هلاّ كنت ضيّق المنخر، كزّ الخيشوم أتبعتها بصيحة تخلع بها قلب العلج.»

2 - ملازمة الحقيقة ومطابقة الواقع:

جلّ الناس يحفظ قوله – صلى الله ليه وسلم-: « إنّ من البيان لسحرا» [15] ، وقلّة هم من يدري سياق الحديث، وملابساته الظرفية، وآثاره السلوكية في السامعين المعنيين به.

« سأل النبي – صلى الله عليه وسلم - عمرو بن الأهم عن الزبرقان بن بدر؟ قال: مانع لحوزته، مطاع في أَدْنِيه فقال الزبرقان: أما أنّه قد علم أكثر مما قال، ولكنّه حسدني شرفي. فقال عمرو: أما لئن قال ما قال. فوالله ما علمته إلاّ ضيّق الصدر، زَمِر المروءة، لئيم الخال حديث الغنى. فلمّا رأى أنّه خالف قولُه الآخِر قولَه الأول، ورأى الإنكار في عيني رسول الله - صلى الله ليه وسلم - قال: يا رسول الله رضيت فقلت أحسن ما علمت. وغضبت فقلت أقبح ما علمت. وما كذبت في الأولى. ولقد صدقت في الآخرة. فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: « إنّ من البيان لسحرا.»

فالحاصل أنّ هذه المساءلة تحيل إلى جملة من الدلائل والإشارات نذكرها كالآتي:

أ.إنّ النبي – صلى الله ليه وسلم - حديث اللقاء بهذا الوافد، وكان من خصاله – صلى الله عليه وسلم - تهيّئة سياق المعاملة لكلّ ضيف يقصده،كي ينزل الناس منازلهم . ويتعّرف على ذوي المروءة من الأشخاص بوصفهم أعيان أقوامهم.

ب .كان- صلى الله ليه وسلم - يستعين مع نبّوته وعصمته بأصحابه، وجلسائه حتّى في الشأن العادي، غير أنّه ما كان يأخذ الأقوال، ويقبل الشهادات، والآراء على علاّتها من دون نظروتدبر..

جـ .إنّ عمرو بن الأهتم رجل لسِن فطن، بارع في الأنساب. وإنّ قوله الأول في الزبرقان كان قد فهمه- صلى الله عليه وسلم - ، وما انطوى عليه من البيان، فقد التبس المدح الظاهر بالهجاء الباطن، وهو ما يعرف عند البلاغيين بفن **التعريض**.

د. إنّ انفعال الزبرقان، وطبيعة ردّه الصريح يكشف عن خيبة ظنّه في صاحبه، وإنّ إحساسه بانتقاص القيمة بحضرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم -أمر محرج قد يضّر بسمعته في مجتمع القبلية.

هـ. إن قول عمرو الثاني في الزبرقان ينمّ عن طويّة، جعلت ابن الأهتم يتمادى حدود اللياقة في ذلك المقام المهيب (مقام النبّوة)، فطاوعه لسانه من حيث إنه تعمّد – بمقتضى السياق- الطّعن والسِّباب بطائل من الأوصاف راعى فيها : **حسن التقسيم، ورصف النعوت وإغلاظ القول...** ومن الطبيعي المنتظر عقِب هذا الموقف المثير أن يمتعض النبي -صلى الله عليه وسلم - لتناقض الجوابين، فتعِّن عليه ملامح السخط لما شاهد وسمع – وحاشاه - صلى الله عليه وسلم - أن يشهد زورا أو يقّر منكرا.

فاستعجل عمرو الموقف - مستدركا - بعبارات كلّها وضوح، وصدق وبيان. مخافة أن يطاله غضب النبي - صلى الله ليه وسلم - وحينها فقط قال - صلى الله عليه وسلم - : (إنّ من البيان لسحرا).

فالتزام الحقيقة، ومراعاة الواقع من مقتضيات البيان الحجاجي حتىّ في المقامات الحرجة.

3 -الإقلال و الإدلال:

يروي ابن الأعرابي * (188هـ- 264هـ)أنّ معاوية قال لصحّار بن عيّاش العبدي:

«ما هذه الفصاحة التي فيكم؟ قال: شيء تجيش به صدورنا، فتقذفه على ألسنتنا. فقال رجل من عرض القوم: يا أمير المؤمنين هم بالبُسُر و الرُّطَب أبصر منهم بالخطب، فقال صحّار: أجل. والله لنعلم

أنّ الريح لتنفخه،وأنّ البرد ليعقده، وأنّ القمر ليصبغه، وأنّ الحرّ لينضجه فقال معاوية: ما تعدّون البلاغة فيكم ؟ فقال: الإيجاز.قال: وما الإيجاز؟ قال: أن تسرع فلا تبطئ، وأن تقول فلا تخطئ.،، [16]

فسياق المحاورة تحيل إلى الأحداث العلمية في المجالس الرسمية التي يشرف على إدارتها الساسة والقادة من أمراء الكلام أمثال معاوية – وهو ما هو في البيان وفن المفاوضات –.

فطابع اللقاء علمي مفتوح على الخاصة والعامة، من عرض القوم لغايات محسوبة منها: التعبئة العلمية، والرعاية الاجتماعية الكافلة أقْدار النخب العارفة، فضلا عن مقاصد يراد منها التعليم وحسن التأديب. إلاّ أن اللاّفت في السياق التحاوري هو الإقناع البياني، والطريقة الحاصل بها. وهي طريقة استجوابية، قائمة على المواجهة والمباشرة، والارتجال الذي يفهم منه سرعة الخاطر المجسّد في الالتفات الخاطف، والتنقّل بين المقامات الخطابية وفق حال كلّ سائل وسامع، وبقدر من الكلام الدال الموجز، الذي لا يحصل بعده تعقيب، أو تقصّ علامة على قوّة الحجة، ووضوح الفكرة التي تقضي بالأقل الأدل.

وهذا القليل الدال كثير في موروثنا التخاطبي، والأكثر فيه ما نلاحظه في فن التوقيعات التي تعتمد صفة «**الإقلال و الإدلال**» رعاية لخلفية المتكلم البياني، والمتلقي المماثل الذي يفهم إشارة الموقّع على ومضّيتها، ولطافة معانيها، فقد وقَّع خليفة إلى أميره نصّا جاء فيه : « **كَثُر شاكوك وقلّ شاكروك. فإمّا اعتدلت، وإمّا اعتزلت**».

«فهذا إيعاز خاطف ينطوي على أسرار بيانية توزّعت في مستويات البناء التركيبي والدلالي، مشيرة إلى طائل من الملامح البلاغية على مستوى بناء التوقيع .

فالموقِّع بنى نصه بتحديد أطراف الخطاب وهم:

1. الأمير المخاطِّب وما يحمله من صفات النفوذ والسلطان.
2. الوالي المخاطَب وما يترتّب عليه إزاء هذا الإشعار المستعجل.

فهذان الطرفان ظاهران بالقرائن اللفظية، والسياقية، والموضعية، ممّا يجعلهما في مقام المعلوم المشخَّص، وهو أسلوب إضماري يدنو من الكشف والتصريح، في حين أخفى السيّاق الخطابي بقيّة الأطراف كلّيا، واكتفى بالإشارة التوصيفية لهم بلفظ «**الشّاكون و الشّاكرون**».

وهما توصيفان مشحونان بالمعاني الرّامزة، والتي يفيد معها التركيب اللّفظي عدد الشاكين والشاكرين من جموع المسكوت عنهم من الرجال والنساء، حتىّ وإن قضى العرف التخاطبي التصريح بقرينة الواو و النون للدلالة على جمع السلامة انسجاما مع قاعدة «**التغليب**».

أما على مستوى ترتيب المعاني المتضمّنة في نص التوقيع، فالمتكلّم حين كان على حال من الكفاءة البيانية، وفي مقام إثبات الحجّة - بالدليل الفصيح - على مخاطَبِه فقد عمد إلى ترتيب الأفكار في سياق منطقي، يشمل مقدّمة واقعية أساسها: «**كثرة شاكيّة، وقلّة شاكرة**».

استلزمت نتيجة مفادها: «**الاعتدال أو الالتزام**». فهذا التوازي البياني في رّص الألفاظ، ودقّة التقسيم، وخفّة العبارة، وصرامة الموقف، وتخيّير المعنى المناسب للموقف المناسب، كلّها إجراءات بلاغية أملتها ضرورة التشكيل البياني، في مثل هذه اللاّفتات الكلامية العاجلة.

ثمّ من اللطائف البيانية المؤثّرة في نص التوقيع أنّ الأمير ذو دراية بدبلوماسية الخطاب. فهو يدري سلفا حجم الهزّة النفسية على عقل،

وحسّ متلقّيه، فبالقدر الذي آلمه وأرعبه وأشقاه، بقوله: «**كثر شاكوك، إمّا اعتزلت**» فقد فتح أمامه فسحة الأمل بإمكانية الاستمرار في المنصب شريطة تحقّق الإنابة والالتزام، من خلال قوله: « **قلّ شاكروك. إماّ اعتدلت.**»

فهذه الصنائع البلاغية اقتضتها **الحقائق المرّة** ، ولأجلها قالوا قديما:«**الحقائق مرّة فالتمسوا لها خفّة البيان.**»

فخفّة البيان، واقتصاد اللغة، واستحضار المكوّنات الخطابية، جميعها مستلزمات تصبّ في حقل الاحتجاج البياني، الذي يُراهَن على حضوره في التخاطبات الأدبية الحاسمة.

4 -حضور البديهة وسرعة الخاطر:

نستدل لهذه الآلية التخاطبية في مقام الإقناع البياني بقضية الشاعر أبي تمام (180هـ- 228هـ) حين أنشد سينيته المشهورة لحضرة فيلسوف الإسلام يعقوب بن إسحاق الكندي في الأمير أحمد بن المعتصم فلما بلغ قوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم * في حلم أحنف في ذكاء إيّاس**

قال له الكندي: ما صنعت شيئا، ما زدت أن شبّهت أمير المؤمنين بصعاليك العرب، فأطرق أبو تمام، ثمّ أنشأ يقول:

لا تنكروا ضربي لمن دونه مثلا * شرودا في الندى و البأس**

فالله قد ضرب الأقلّ لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس**

ولم يكن هذا في القصيدة. فتزايد العجب منه، ثم طلب أن تكون الجائزة ولاية عمل فاستصغر عن ذلك فقال الكندي: « ولّوه لأنّه قصير العمر، لأنّ ذهنه ينحت من قلبه. فكان كما قال.»[17]

فمن غريب المصادفات أن يجمع المقام برهانيا جدليا، إلى جنب شاعر بياني لهما من اختلاف القناعات، والرؤى ما يتعسّر معهما تحقق الوفاق. فاعتراض الكندي و طعنه في شعرية أبي تمام له وقعه في الشاعر بخاصّة. في تلك المناسبة المهيبة، ولو قُدِر لأبي تمام أن أرتج عليه ، أو انحبس عليه نفس الشعر خلال الإلقاء لكان هو العجز والعيّ ، ولصار الموقف أدعى إلى الشماتة و التشفّي. لكنّ الخلاص من حرج الموقف جاء بفعل عفوية الشاعر، واقتداره على الاسترسال بما ليس في الخاطر من قول أبلغ وأسرع، سدّ عليه منافذ الانتقاد، وحوّل الرأي المشاكس إلى حال من الرضا والاقتناع بمهارة الشاعر، الذي لم يكن إلاّ بيانيا يستمدّ الحجّة من سند البديهة، وحضور الخاطر. وليس ذلك مُتاحا لعامّة المتكلمين.

5 - الاستمالة والتأثير:

إنّ أبرز مهمّات الخطاب الفني هو التأثير في الذّات السامعة ، وإمتاعها حسّيا، ووجدانيا بما تقتضيه آليات الوظيفة الشعرية. ومن هذا التوجيه كان الإلذاذ مقصودا في وعي الشاعر، والخطيب والبياني، فكلّ يستخدم غالبا معجما عاطفيا المراد منه كسب الآخر، واستمالته بغرض إقناعه بوجهة نظره، التي يسوّقها جماليا بعبارات أوضح ما تكون عليه من وحي الدلالة، وصدق الفكرة[18] وحجيّة الصياغة، لأنّ البياني المتكلم هنا تدفعه إلى تغيير حال سامعه، والتصديق بمحمولات الرسالة الخطابية الموجهة بشأنه عاملان انفعاليان هما:

الخوف و الطمع. والكلام في جلّه إذا ما انطبع بطابع الانفعال الذاتي كتُب له صدق الادّعاء لأنّه وليد التأمل الذاتي. فهو إلى الاستبطان والتأمّل الداخلي أقرب منه إلى استقراء الأسباب بالعقل الظاهر.

فكعب بن زهير قد أهدر النبي [19] – صلى الله عليه وسلم – دمه، وشاع خبره بين الناس مسلمين ومشركين فقاده الخوف والطمع في أن يقصد رسول الله – صلى الله عليه وسلم- منيبا مستغفرا.

يقول كعب بن زهير: «**فعرفته** - صلى الله عليه وسلم - **بالصّفة فتخطّيت الناس إليه فأسلمت، وقلت: الأمان يا رسول الله، هذا مقام العائذ بك...** فأنشده قصيدته التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول * متيّم عندها لم يُفْد مكبول**

وكانت القصيدة طويلة. ابتدأها على سنة الجاهليين بالتشبيب، حتىّ إذا تخلّص من الحديث عن سعاد، انبرى يخاطب النبي – صلى الله عليه وسلم - مستعطفا، معتذرا، ملقيا اللائمة على الوشاة الذين بغّضوه إلى النبي- صلى الله عليه وسلم - وصحبه، بمعان وألفاظ إيمانية تشهد لصحّة إسلامه، حتىّ إذا وصل إلى قوله:

نبئت أنّ رسول الله أوعدني ***والعفو عند رسول الله مأمول

مهلاهداك الذي أعطاك نافلة ال*قرآن فيها مواعيظ وتفصيل**

لاتخذني بأقوال الوشاة ولم * أذنب و إنْ كثر فَّي الأقاويل**

إنّ الرسول لسيف يُستضاء به* مُهنّد من سيوف الله مسلول**

انفتحت بعد هذا التوصيف الرائع أسارير النبي- صلى الله عليه وسلم- وخلع عليه بردته الشريفة، قابلا عذره، راضيا عنه بفعل قوته البيانية، التي حقّقت العطف والاستمالة، وقلبت المقام إلى نقيضه. وهكذا يكون كعب قد استعبد قلب النبي- صلى الله عليه وسلم - بإحسان القول فيه. فعاد وقلبه مطمئن بالإيمان.

6 - جمال الهيئة و حسن الشارة:

هاته ليست صفة كلامية ولكنّها حالة متعلّقة بالمتكلّم لحظة التأدية الخطابية، من باب تعلّق الصفة بالموصوف. فللمظهر دلالة على المخبر، وحسن السّمت غالبا ما ينطوي على همّة، وعقل وكمال. ولأجل هذا اشترط أهل الحديث في المحدِّث: أن يكون حائزا على شروط تأنّقيّة، تبعث على الإكبار، والإعجاب منها :

أن يكون **مُحكِّما عمامته، ممُشِّطا لحيته**. بل جاء في الأثر: « **أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم. فوالله إنّ أحدهم ليعثرويده بيد الرحمان.**» ولم يعتن الإسلام بالحث على إبداء الزينة، وتحسين السمت في مقامات الاحتفال بالناس إلاّ من باب اعتبار ذلك دليلا صريحا، وعنوانا شاهدا لحقائق كامنة تحيل إليها الظواهر، مادام الإنسان مأخوذا بها. فإذا انعدمت هاته الصفة في البليغ أو المُحاجِج أو المحدِّث، أو البياني ضاع كثير من شأنه الاعتباري، وسقط في أعين الناس و هانت همّته لهوانه عليها. وقديما قالوا:«**تسمع بالمُعَيْدي خير من أن تراه**». ومورد المثل يحيل إلاّ أنّ المُعيدي رجل له شأن في المعنى، والأثر والسلوك، ولكن حين لزمه قبح المنظر، وعَدم جمال الشارة لم يشفع له المضمون النفسي ولا الوزن العقلي، ولم يعد يقنع الرائي بحال.

فالإقناع بالهيئة الحسنة قيمة مضافة لشخص المخاطِب، تتعزّز بجمالية البيان، والتأديّة، والإسماع لأنّ « **المرء مخبوء تحت لسانه**»، «**وإنما جُعِل اللسان على الفؤاد دليلا.**»

الخلاصة:

بناء على ما تقدّم من الشروح والاستدلال بالنصوص المحقّقة، فإننّا ننتهي إلى الملاحظات الآتية:

1 - إنّ التواصل اللغوي يظلّ قائما بين المتخاطَبين، سواء حصل ذلك بخلفية البيان، أم البرهان.

2 - إنّ التمايز الحاصل بين الخطابين - البرهاني، والبياني- مردّه إلى ثقافة المتكلم، ومدى الطاقة الكلامية التي يمارس بها فعل الإقناع.

3 - قد يجتمع لدى المتكلّم البليغ الفن البرهاني، والصناعة البيانية في مقام واحد، حيث يتماهى الموضوعي بالذّاتي. ومثل هذا التوجّه كثير في خطابات أهل الحكمة، واللغة المتعقلة من أمثال زهيروأبي تمام، والمتنبي، والجاحظ، والعقاد، والمعري، وأبي حيان التوحيدي، والبوصيري ...

4 - إنّ المتنبي ولخصوصيّة حجاجيّة استطاع إقناعنا بأفضلية المرأة على الرجل في سيّاق مخصوص، رغم استحالة القبول بهذا الحكم، وفي هذا المجتمع المرهون إلى فكرة أفضلية الذكر على الأنثى أبدا.

5 - إنّ عماد المتنبي في تقرير أفضلية المرأة على الرجل -أحيانا - كامن في الاحتجاج العقلي في سياق بياني جمع خلاله بين ثنائية العقل والقلب - أي الموضوعي والذاتي- **بنصاعة الفكرة وقوّة الحجّة. ورونق العبارة. وحسن المقايسة والتمثيل.**

وهذه عناصر عزّ اجتماعها إلاّ لمتكلِّم مخصوص، وفي مقام أدقّ خصوصية، كما هو الحال في مرثيته لأخت سيف الدولة، التي افتتحها بالقول:

نُعِدّ المِشرفية والعوالي * * * وتقتلنا المَنونُ بلا قتال [20]

فاسترسل في الإنشاد، حتىّ إذا بلغ مقام الإشادة بالأميرة الفاضلة، تجرّد من الضابط العقلي وأذعن إلى خياله بحسّ غير مسئول، فقال حينها:

ولو كان النساء كمن فقدن * * * لفُضِّلت النساء على الرجال [21]

و لكنّه أدرك أنّ المتابع العربي عضو في مجتمع ذكوري. وهيهات أن يتقبّل منه هذا التقرير الجريء. .فاستدرك على الفور باستدعاء الواقع المنظور، ليكون حجّة برهانية على كلّ ذي بصروبصيرة.

فقال:

وما التأنيث لاسم الشمس عيب * ولا التذكير فخر للهلال** [22]

فيكون بهذه المقايسة السليمة، وبهذا التمثيل البليغ قد شكّل الحجّة الدامغة في إقرار الفكرة صورة وحكما، لأنهّ يمتنع على أيّ عربي، وفي أيّ حال ومقام من الزمان، أن يقرّ بأفضلية القمر على الشمس.

الإحالات

1 -الروم: آية 29.

2 - الجواهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تح أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت ج5 /2082 .

3 - ابن منظور، لسان العرب،

4 - مختصر تفسير ابن كثير، تح محمد علي الصابوني، دار القلم، بيروت، ج3 /45.

5 - جار الله محمد بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، ج4 /49.

6 - أحمد الصاوي المالكي، حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين، دار الفكر، بيروت ج2 /153.

7 - الجاحظ، البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، ط3، د ت.

8 - أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، 2007.

9 - ينظر: حسن المودن، بلاغة الخطاب ألإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2014، ص 314.

10 - ابن رشد نقلا عن محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول أنموذجا، أفريقيا الشرق لبنان ط2، ص 36.

11 - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ط3، 1983 ص 60.

12 - محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال «البيان والتبيين»، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983. ص 111.

13 - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ج2 /179.

14 - محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، ط7، 8،ص 386.

15 - ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر، ج1، ص 174.

16 - الجاحظ: البيان والتبيين، ج1 /109.

17 - ينظر أحداث القصة في كتاب: شهاب الدين محمد بن أبي الفتح الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ج1، ص 104.

18 - أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ص 156.

19 - تراجع القصة بتمامها بالكامل لابن الأثير، ج2، ص 186 وما بعدها.

20 - المتنبي، الديوان، بيروت للطباعة والنشر، 1980، ص 265.

21 - ديوان المتنبي، ص 267.

22 - ديوان المتنبي، ص 267.

مكتبة البحث:

القرآن الكريم.

1 - ، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب.

2 - الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط3، د ت.

3 - جار الله محمد بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، ج4.

4 - الجواهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، ج5.

5 - حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، داركنوز المعرفة العلمية للنشروالتوزيع، الأردن، ط1، 2014.

6 - شهاب الدين محمد بن أبي الفتح الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ج1.

7 - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ط3، 1983.

8 - المتنبي، الديوان، بيروت للطباعة والنشر، 1980.

9 - محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، ط7، 8.

10 -محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال "البيان والتبيين"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

11 - محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول أنموذجا، أفريقيا الشرق لبنان ط2.مختصرتفسيرابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني، دار القلم، بيروت، ج3.

12 - ابن منظور، لسان العرب.